التبسيط والتيسير في كتب الصّرف الحديثة
–كتابُ القرعبلانة في فنّ الصرف أنموذجا–

Simplification and facilitation in the modern morphology books
-The book of Qaraabalana in the art of morphology as a model-

أ.مُحَمَّد الأمين مصدّق[1]
Researcher:Mohamed Amin Mossadak
جامعة محمّد خيضر بسكرة (الجزائر)
Mohammed Khider University Baskra (Algeria)
manogoodman@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/01/21 تاريخ القبول: 2020/12/30 تاريخ النشر: 2020/04/16

الملخص :

يعاني كثير من طلبة العلم صعوبةً كبيرة في فهم فنّ الصّرف الذي أصبح يسبب لهم كابوسا مع شقيقه علم النّحو، فنفروا منهما وأغلقوا عقولهم دون فهمهما، محتجّين بتشعّب مادتهما وبعد مأخذهما، فكان لزاما على علماء اللّغة أن ييسّطوهما، ويتحفوا طلبة العلم بكتب تيسّر لهم المادة وتوضّحها. ونحاول في هذه المقال أن نتعرّف على أحد الكتب الصّرفيّة المؤلّفة في العصر الحديث من أجل استشفاف مدى نجاعتها في تيسير المادة العلميّة وإفادة المتعلّمين، وهو كتاب "القرعبلانة في فنّ الصرف" لعبد العزيز الحربي الذي يعدّ من الكتب الجيّدة التي تعاملت مع هذا العلم بأسلوب مبتكر يقرّب فنّ الصرف من طلبة العلم ويرغّبهم فيه.

الكلمات المفتاحية: التبسيط؛ التيسير؛ فنّ الصرف.

Abstract :

Many of the students suffer a great difficulty in understanding the science of morphology, which has become a nightmare with the grammar science; so students fled from it and closed their minds , arguing the complexity of their bases and the difficulty of get them, so the linguists is required to simplify them, and write a books which facilitate and explain them .

1- المؤلف المرسل الباحث: مُحَمَّد الأمين مصدّق manogoodman@gmail.com

In this article, we try to study one of the morphology books which was written in the modern era in order to determine how effective it is in the simplification of the The educational content of morphology for learners and make them love it, the book is "Qaraabalana in the art of morphology" by Abdel Aziz al-Harbi, which is one of the good books that dealt with this science In an innovative manner that brings the art of morphology closer to the students of this science, and make them desire it.
Keywords : simplification ; facilitation; morphology.

تمهيد:

يعدّ فنّ الصرف من أجلّ العلوم العربيّة وأهمّها، وهو قرين علم النحو، فقد كان يطلق عليهما مجتمعين "علم العربيّة"، فينبغي على طالب العلم أن يفقهه، ويحيط بأهمّ أبوابه على الأقلّ؛ لأنّ الجهل بهِ آفة على متعلّم العربية، وطريق إذٌّ نحو الخطل والتلبيس. وقد جاء تعامل العلماء القدامى مع فنّ الصرف متّسقا والغاية التي رام تحقيقها هؤلاء العلماء، فحصروا مجاله في الاسم المتمكّن والفعل المتصرّف؛ فلا يقلّ ولا يربو مدار البحث فيه عن الكلمة التي هي مجال الدراسة الصرفيّة.

ولم تنفصم عرى مباحث فنّ الصرف عن مباحث علم النحو عند النحاة المتقدّمين، في حين إنّ المتأخرين فصلوا بين العلمين، والأمر نفسه ينسحب على العلماء المحدثين، بينما اتّسع مجاله في إطار الدرس اللّساني وأطلق عليه اسم "المورفولوجي"، وتمّت دراسته بطرق أكثر ملاءمة واتّساقا مع التطوّر العلمي الذي حدَث في المجتمع العربي.

وبناءً على البسط السابق ينطلق بحثنا من إشكاليّة رئيسة: ما الطريقة التي اتّبعها مؤلّف كتاب "القرعبلانة في فنّ الصّرف" في الجانبين الموضوعي والمنهجي من أجل تبسيط المادة التعليميّة؟ وإلى أيّ مدًى يمكن اعتبار كتابه مرجعًا ميسّرا لطلّاب العلم؟

1-مفهوم فنّ الصّرف:

أ-لغة:

الصّرف في اللّغة يعني التحويل والتدبير والتوجيه،[1] ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[2]، وقوله: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[3]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾[4]، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾.[5]

ب-اصطلاحا:

يعرّفه علماءُ العربيّة بأنّه «العلم الذي تعرف به صياغة الأبنية العربيّة، وأحوال هذه الأبنية التي ليست إعرابا ولا بناء»[6]. ولا يختص فنّ الصرف بجميع الأبنية؛ بل مدار الدراسة

الصرفيّة محصور في الأسماء المتمكّنة والأفعال المتصرّفة، فلا يبحث في الأسماء المبنيّة كالضمائر، ولا في الأسماء الأعجمية كإبراهيم، ولا في الأفعال الجامدة كنعم وليس، ولا في الحروف بأنواعها المختلفة.[7]

أمّا في الدّرس اللّساني الحديث فالصرف يعدّ فرعًا من فروع اللّسانيات ومستوى من مستويات التحليل اللّغوي، يُعنى بتناول البنية التي تمثّلها الصيغ والمقاطع والعناصر الصوتية، التي تؤدّي معاني صرفية أو نحويّة، ويطلق الدارسون المحدثون على هذا الدّرس اسم "مورفولوجي" "Morphology"، وهو ذلك العلم الذي يتناول الناحية الشكليّة التركيبية، للصيغ والموازين الصرفيّة.[8]

2–الفرق بين علم النّحو وفنّ الصّرف:

أطلق العلماء القدامى اسم "علم النحوِ" على علمِ النحو وفنّ الصرف معًا؛ حيث صهروهما في بوتقة دراسةٍ واحدةٍ، وهذا جليّ وواضح من خلال استقراء أغلب التعريفات المخصوصة لعلم النحوِ، والتي نجدها مبثوثة في صحائِف أمّات الكتُب التراثيّة المعتبرة.*

ولكنّ المتأخّرين جنحوا إلى التفريق بينهما، فهما علمان مختلفان في موضوعهما وغايتهما.[9] والفرق كامنٌ في كونِ علم النحو يهتم بدراسة أحوال الحرف الأخير من الكلمة المعربة، بينما يدرسُ فنّ الصّرف ما عدا ذلك من أحوال الكلمة المعربة وغير المعربة بما يرتبط بموضوع بنيتها.[10] ولذلك يمكن أن نعدّ فنّ الصرف أمّ اللغات، ونعتبر علم النحو أبا اللّغات.[11]

3–أهميّة فنّ الصّرف:

فنّ الصّرف أحد علوم الأدب الاثني عشر التي يُحترز بها عن الخلل في كلام العرب لفظا وكتابةً، وكان علماء النّحو قديما هم علماء اللّغة والأدب، والتمايز بين هذه العلوم لم يتمّ إلا بعد حين، ونشأ علم النّحو وفنّ الصرف معا حين أحسّ العرب بحاجتهم إليهما، وذلك لحفظ النصّ القرآني من اللّحن الذي انتشر بدخول شعوبٍ غير عربية في الإسلام، ولفهم النصّ القرآني بعدّه مناط الأحكام التي تنظّم شؤون الأمّة الإسلاميّة.[12] وقد لخّص عبد الرحمن شاهين أهميّة هذا العلم بقوله:[13]

1–ضبط بنية الكلمة العربية حتى يصحّ نطقها، وتسلم حروفها من التصحيف، ويبرز ذلك في مباحث الأفعال.

2–تيسير التعرّف على مفردات اللّغة؛ لأنّ بعضها يتعرّض للحذف أو الزيادة، أو اختلاف ترتيب حروفها (القلب المكاني)، ففنّ الصرف يسهّل التعرّف على أصلها، كي يسهل البحث عنها في المعاجم العربيّة من خلال اهتمامه بدراسة الأفعال.

3–إثراء اللّغة بالمفردات، بالإضافة إلى كثيرٍ من الفوائد والثمرات لهذا العلم الذي يعدّ ضروريّا لإتقان اللّغة العربيّة تكلّما، وتذوّقا، وفهما، وهو مهمٌّ جدّا لتفسير نصوصها.

4-تبسيط علم النّحو وفنّ الصّرف:

لقد أُلّفت كتب كثيرة قديما وحديثا في تبسيط وتيسير علم النحو، وحُبكت آلاف المقالات، ونُظّمت مئات الملتقيات، وبُسطت مشاريع وازنة ومنهجيّة تنوّعت في مشاربها وطرقها، وتُحدّث عن سبل لتيسيره وتذليله وتقريبه، وبالرغم من ذلك لا ينفك الطلّاب يشتكون من صعوبته، ويتألّمون من تعقيد قواعده وتوسّع أبوابه وتشعّب طرقه وتمدّد منهاجه، والجهود قائمة حتى يومنا هذا على قدم وساق من أجل الوصول إلى أفضل نحوٍ لتدريس علم النحوِ.

أما فنّ الصرّف فلم يحظ بما حظي به شقيقه وصاحبه ممّا ذكرنا من شأن التبسيط والتيسير إلا في ما قلّ ودلّ من محاولات مشكورة مبعثرة هنا وهناك. فلا يزال الطالب يعاني وينفر من هذا العلم، ويرميه بالصعوبة وبعد المأخذ، ولا يرى إلى فهمه سبيلا. على أنّ سبب الصعوبة مرّده إلى ثلاثة أسباب: أولها الطالب، وثانيها الأستاذ، وثالثها المنهاج. وإذا كان فنّ الصرف هو التغيير والتحويل، فينبغي أن تتغيّر طريقة التدريس، وتصرّف شؤون هذا العلم بطريقة تقرّبه في ثوب قشيب، فيحبّه الطالب ويستمتع بتدريسه الأستاذ، فتتحقّق الفائدة المرجوّة من العمليّة التعليميّة.

5-نماذج من محاولات تَيسير فنّ الصّرف في العصر الحديث:

لا يمكن أن نعرض بالدّراسة والتحليل لكلّ المؤلّفات التي قصدَت تبسيط وتيسير فنّ الصرف؛ بالنظرِ إلى أنّ موضوع هذا البحث مخصوصٌ لنموذج وازن من هذه الكتب (القرعبلانة في فنّ الصرف لعبد العزيز الحربي) بعدّه واحدًا من الجهود الرائدة. وعليه فسوف نتناول في ما يأتي باختصار أهمَّ ثلاث محاولات لتيسير فنّ الصّرف في العصر الحديث على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

أ-تيسير الصّرف لعبد القادر فيضي وعبد الله الدارمي :

جاء هذا الكتاب في عشرين ومائتي صفحة، وهو موجّه لطلبة السّنتين الأولى والثانية من التعليم الثانوي، و السبب الذي دفع الباحثين للتأليف في هذا العلم يعود إلى كونِ فنّ الصّرف جليلا وهامًّا، «فلا بدّ من درسه وتحقيقه لتعلّم اللغة العربيّة التي لا نستطيع بدونها فهم القرآن والسنّة»[14]. والمؤلّفان نظرا وقلّبا في كتب الصرف التي تمّ تأليفها فألفيا أنّها لا تسدّ حاجة المتعلّمين الذين «يتجشّمون صعابًا في درس علم الصرف ويقاسون عناء شديدا في إدراكه»؛[15] ولأنّهما رأيا «أنّ الكتب الموضوعة لهم فيه لايتيسّر بها درسه ولا تأخذ بأيدي الطلاب إلى الغاية»[16]؛ لذلك اضطرا إلى تأليف هذا الكتاب. ويصرّحان بأنّهما اتّبعا في هذا الكتاب النهج نفسهُ الذي سار فيه علي الجارم ومصطفى أمين في كتابها البارع "النحو الواضح" الذي لقيَ قبولا ورواجا واسعا في كثير من الأقطار، فكان منارة استضاءَا بها لسبك هذا المؤلف الصّرفي.[17] وأدرجا في كتابهما جملة من النصائح التي وجّهاها إلى المعلّمين،

ودعـواهم إلى الالتـزام بهـا حـتى تتحقّـق الغايـة المرجـوة، ويكنـه الطـلّاب فحـوى الـدّروس ويستوعبوها على أكمل وجه.[18]

أمّـا في مـا يخـصّ فحـوى الكتـاب فمـداره ثلاثـة وخمسـون درسًـا مقصـورة علـى أهـمّ المواضيع التي تتناسب وطلاب العلم في هذه المرحلة، أولُّ هذه الدروس (الكلمة وأقسامها)[19] وآخرها (حذف الهمزة للتخفيف في المهموز)،[20] وكلّ درس يتركّب من أربعة أجزاء هي: الأمثلة، والبحث، والقاعدة، والتمرينات.[21] وجاءت الأمثلة التي وظّفها المؤلفان بسيطة قريبة من المتعلم، وأحيانا تكون جميعها مستقاة من النصّ القرآني الكريم، مثل ما نجد درس المضاعف.[22] وبسطَا الدّروس بأسلوب ماتع سهل، وبلغة تعليميّة مختارة بدقّة وعناية، وعضدا هذا بشرحٍ وافٍ كافٍ يتيح للمتعلّم فهم الدرس والإحاطة بأساسياته. لذلك فهذا الكتاب يعدّ تعليميًا بامتياز.

ب–تيسير الصّرف لمحمد جعفر إبراهيم الدرازي:

يقع هذا الكتاب في ثمانية وسبعين ومائة صفحة من القطع المتوسّط، وقصد صاحبه من تأليفه تناول أمّات المسائل الصرفيّة بأسلوب سهل يكون في متناول الدارسين للّغة العربيّة كما بيّن ذلك في المقدّمة القصيرة جدّا التي صدّر بها كتابه.[23] والتزم المؤلف بوعده، فجاء كتابه بسيطا في موضوعه، سهلا في منهجه؛ حيث تناول فيه تقسيمات الفعل (صحيح ومعتل، مجرد ومزيد، متصرف وجامد)، ثم تقسيمات الاسم (المجرد والمزيد، الجامد والمشتق، المذكّر والمؤنث، الصحيح والمعتل، مفرد ومثني وجمع)، ثم الإعلال، ثم الميزان الصّرفي، ثم أبنية الأسماء والأفعال (ثلاثي، رباعي، خماسي)، ثم التصغير والنسب.

ومـن مميّـزات الكتـاب أنّ صـاحبه قـدّم تعريفـا جيّـدا لفـنّ الصـرف، وحصـرًا بـديعًا لموضوعه،[24] كما ضمّنه جملة من المخططات التوضيحيّة للمسائل الصرفيّة.[25] وتفرّد أيضا بإيراده جملة من التمارين المحلولة وغير المحلولة،[26] وانتهج فيه سبيل البدء بالأمثلة في كلّ درس، ثم توضيحا لهذه الأمثلة، ثم يضع خلاصة للدرس.[27] وهو يورد أحيانا الاختلافات التي تقع بين مدرستي البصرة والكوفة في بعض المسائل.[28] وأمثلته التي وظّفها سهلة بسيطة وشائعة.[29] وكثيرا ما يستخدم عناوين بصيغة الاستفهام.[30] وتجدر الإشارة إلى أن المؤلِّف اعتمد في سبك كتابه على جملة من أهمّ أمّات الكتب القديمة والحديثة التي ذكرها في قائمة مصادره ومراجعه.[31]

ج–مختصر الصرف لعبد الهادي الفضلي :

يقع هذا الكتاب في اثنتين وأربعين ومائة صفحة، والهدفُ من تأليفه كما يقول كاتبه في مقدّمته «محاولة متواضعة لتقديم عرض مختصر لمادة علم الصرف، وبأسلوب تعليمي ميسّر».[32] ونوّه أيضا إلى أنّ مؤَلَّفه هذا هو تصحيح وتنقيح لكتاب صرفيّ سابق عنوانه "موجز التصريف".[33] وقسّمه إلى تمهيد عرّف فيه بعلم التصريف، ومفهومه وفائدته، تليه

خمسة أبواب: (باب الكلمة، باب تصريف الأسماء، باب تصريف الأفعال، باب في تصريفات عامّة، باب في موضوعات أخرى)، ثمّ ملحق ضمّنه معاني الكلمات الغريبة وشبهها مما استخدمه في الكتاب شاهدا أو مثالا.[34]

أما منهجه في الكتاب فمداره: «تعريف المصطلح أو المفهوم الصّرفي ثمّ شرح التعريف إذا كان ذلك لازما، فذكر الأقسام والأحكام، وما يتبعهما من مسائل»،[35] وقد ضمّن الباحث كتابه مجموعة من المخططات التوضيحيّة القليلة.[36] وحسب رأينا فهو لم يوفّق كثيرا في كتابه هذا، ولم يصب الغاية التي أرادها؛ نظرا لجنوحه إلى الشرح المختصر جدّا إلى درجة الإخلال، كما أنّ لغته بعيدة عن البساطة، وهذا ما انعكس على الأسلوب المملّ في العرض، أمّا الشواهد والأمثلة التي استخدمها في الكتاب فجافّة جدّا على الرغم من كثرتها وتنوّعها.

6-فنّ الصّرف والملكة:

لا خلاف في الأهميّة الكبيرة والمرتبة الجليلة التي تمتّعت بها علوم التفصيح، وهي: النحو والصّرف والعروض والقوافي والرسم والإملاء في الدّرس اللّغويّ العربيّ قديمًا وحديثا، فكلّما اتّسع وعاء طالب العلمِ فيها، وكانت مداركه كبيرة، ومعارفه متنوّعة، واطّلاعه عميقا، وفهمه دقيقا، أمكنه أن يحسن التطبيق ويحقق الغاية من المقاربة، ويصيب الهدف من الدراسة؛ فعلوم الآلةِ –وفي مقدّمتها النحو والصرف- لا تُدرس من أجل ذاتها أساسًا، بل بعدّها طريقا يُسلك لفهم علومٍ أخرى.

والأمر كلّه إذنْ كما يقول ابن خلدون رهين بالملكة[37] التي ليست نباتا ينبت دون ماء؛ بل ينبغي أن يبنيها المتعلّم، ويطعّمها. فلا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن نحمّل الأستاذ وزر جهل المتعلم، وقلّة حذقه، وضآلة استيعابه؛ لأنّ الحجم الساعي عموما لا يكفي لبسط كل دقائق هذا العلم.

وسبب العجز الواضحِ الذي يعاني منه الطلّاب في استيعاب هذا العلمِ يعود إلى جهلهم بطريقهِ السليم، وإطلاقهم الأحكام العامة دون تجريب، واستغلاق أفهامهم وقتَ الدرس. ثم إعراضهم عن البحث فيه، ومطارحة الكتب التي تتحدّث عنه، وربما انطلاقهم منطلقات خاطئة من أبوابه الصعبة، مثل: الإعلال والإبدال، مع أنّ الضرورة تلزم التدرّج في الطلب، والانتقال من الأسهل إلى السهل، ثم الصعب فالأصعب، حتى لا يتعب الذهن، ويستغلق الفهم، وعدم الانتقال من باب إلى باب حتّى يحكم السابق فهما ويتبصّر فيه علما، وإلّا دخل المتعلّم في سرداب لم يستطع الخروج منه، وزاد الطين بلّة، فيُبغَّض هذا العلم الجليل إليه.

وفي خضمّ بحر الكتب المؤلّفة في فنّ الصرف، والبحوث المسبوكة، والنظريات المحبوكة، التي تناولت الظاهرة اللغوية من جوانب متعدّدة، قد يضيع فكرة الطالب ويتشتّت ذهنه، فلا يدري من أين يأتي هذا العلم، ولا أيّ طريق يسلك حتى يحقق الفهم. ونظرا لضرورة التدرّج

وأهميّة التراتبيّة، يمكن للطالب المهتم أن يبدأ مشواره الصرفيّ –إن صحّ القول– بكتاب "القرعبلانة في فنّ الصرف" للدكتور عبد العزيز الحربي الذي يمكنه الاستفادة منه كثيرا، حتى تُنار طريقه في خضمّ دراسته لهذا العلم الجليل.

7–كتاب القرعبلانة في فنّ الصّرف:

ألّف الدكتور عبد العزيز الحربي* هذا الكتاب الذي لقيَ رواجا كبيرا، واهتماما واسعا من طرف طلبة العلم على اختلاف مستوياتهم؛ ويعدّ بحق تركة ثمينة، وزادا طيّبا يضاف إلى مؤلفاته الكثيرة والثرّة. ونهج فيه سبيلا متفرّدا في التسمية ومتفرّدا في الأبواب، وفي ما يأتي نسجّل أهم الملاحظات حول هذا الشأن:

–لم يتضمّن الكتاب مقدّمة ولا مدخلا.

–تصدّر الكتاب ثلاثة مباحث: حول تسمية الكتاب، بيد يدي الصرف، الصرف بين يديك.

–تناول بعدها موضوعي الميزان الصرفي والقلب المكاني.

–خُصِّص الباب الأول لتصريف الأفعال: (الفعل الصحيح والمعتل، المجرد والمزيد، الجامد والمتصرف، توكيد الفعل، فعلا التعجب).

–الباب الثاني تمّ تخصيصه لتصريف لأسماء: (المشتقات الثمانية وتتضمن المصادر وأقسامها المختلفة، الأسماء من حيث المد، والقصر، والنقص، والجمع، والتصغير، والنسب).

– الباب الثالث خُصِّص للتصريفات المشتركة بين الأسماء والأفعال (الإعلال والإبدال، الفتح والإمالة، الوقف، الإدغام، الوقف، همزة الوصل).

–خُتم الكتاب بتسليم، ثم فهرس للموضوعات.

أ–مميزات الكتاب:

–كتاب متوسّط الحجم، لا يتجاوز عدد صفحاته خمسة وستين ومائة صفحة.

–سهولة بسطه، وجلاء ألفاظه وعباراته.

–جنح المؤلّف إلى الاختصار في أغلب الأحيان، واعتمد الإيجاز الذي يحقق الغاية ولا يخلّ بالمعنى.

–جزالة أسلوبه، وتناسق عبارته وتضافرها.

– الشرح الممتاز الذي يجلي المستغلق، ويوضح المبهم.

–تنوّع الأمثلة ودقتها، وقربها من القارئ.

–الابتعاد عن استعمال الغريب الحوشي، والاقتصار على المستعمل الشائع.

–قصر الكتاب على الموضوعات الهامّة التي ينبغي على الطالب المبتدئ أن يعرفها.

–إسقاط المواضيع التي لا تخدم طالب العلم، وتعدّ من قبيل فضول العلم في مرحلة الطلب.

-التزام المؤلف بالمصطلح الصرفي القديم بغية عدم إشغال ذهن الطالب المبتدئ بما أنتجه الدّرس اللساني الحديث، حتى لا يضيع بين الاختلاف في المصطلحات وتحديداتها، ويضيع الغاية الأساسيّة وهي فهم الأبواب واستيعابها.

-حاول المؤلّف الاختصار في عدد الأبواب والفصول والمباحث من خلال جمع جميع الأبنية الصرفيّة التي تصلح أن تندرج في بوتقة واحدة، حتى لا تكثر التقسميات والتفريعات والحواشي.

ب-أمور نبّه إليها المؤلّف:

-وضّح المؤلف في بداية كتابه تحت عنوان "سبب تسمية الكتاب" مردّ اختياره هذا الاسم المبهم الغامض "القرعبلانة"؛ إذ إنّ النكتة ليست في هذه الكلمة من ناحية غرابة معناها بل إلى مبناها؛ لأنّها تجاوزت النصاب القانوني لعدد الحروف في الكلمة العربيّة، وخرقت ما شاع عند الصرفيين، قال ابن مالك:

وَمُنْتَهَى اِسْمٍ خَمْسٌ إِنْ تَجَرَّدَا * وَإِنْ يَزِدْ فَمَا سَبْعٌ عَدَا**

«فقرعبت عليهم هذه اللفظة قاعدتهم، وزادت على سبعة أحرف، فجعلوها شاذّة، وهي سفينة النجاة لدى اللغوّيين...وأما وجه التسمية فتأسّيا بالكتاب العزيز في أسماء سوره».[38]

-بدأ مبحث "بين يدي الصرف" بكلام أنيق لبق، طيب، جميل يستدر انتباه المتلقي، ويحبّبه للاستمرار في القراءة والإقبال على الكتابة: «سيرحل بك هذا الكتاب إلى حدائق غناء، فيها أشجار، فيها ثمار، تقطف من يانعها حين تشاء، سوف يجعل لك فنّ الصرف جسدا زكيّا، وشهدا صفيّا، ويعطيك مادة الروح التي تكون فيه فتحيَا بإذن الله صورة في أحسن تقويم، وإذا صُرِف بصرك إلى غيره ارتدّ على عجل، وانصرف على وجل».[39]

-مردّ صعوبة فنّ الصرف حسب المؤلف في جانبين:

*نفور نفوس الطلبة مما يعتقدون أنّه صعب وهو سهل.

*الأستاذ الذي درّس هذا العلم بغير نفس.

-يرى المؤلّف أن كلّ متعلّم مزوّد بمعارف سابقة تعينه على فهم هذا الفنّ، ولكنّ النفور والانصراف عن طلب هذا العلم واستشكاله، هو ما يزيد صعوبة الطريق، ووعورة المسلك، ويبني ذلك الحاجز الوهمي الذي يحول بينه وبين الإقدام عليه، والصبر على مدارسة أبوابه وإعمال الذهن في فصوله ومباحثه.

-يقرّ المؤلّف بصعوبة بعض الأبواب والمسائل التي ينبغي أن يعمل فيها الذهن، ويتوقّد فيها الفكر، ويصبر المتعلّم على أذاها، ويشتاق للقياها، ويكرّر ويعيد، حتى يصيب الهدف، ويبلغ المرام.

ج–نظرات في فحوى الكتاب:

دفع الخروج عن العادة والتزام مخالفة النهج القديم، وتحاشي البسط الخشبي في اللّغة المؤلّف إلى استخدام أسلوب يسيل عذوبة، ويتقاطر طلاوة، زيّنه ببعض الأمثال والآثار، فيقول في مدار تفريقه بين الحروف الصحيحة وحروف العلّة: «وحروف العلّة على ضعفها، وقلّة عددها هي التي فعلت الأفاعيل في علم الصرف، وأهله. ومن ثمّ قيل: اتّق شرّ الضعيف. وقالوا: الضعيف أمير الركب. فالأمير في هذه الحروف (و.ا.ي)».[40] وقوله في موضع آخر: «سأقدّم لك هذا الباب ليكون بين يديك مائدة ذات ألوان».[41]

وتميّز الكتاب باستخدام أمثلة مستقاة من الحقل الديني والاجتماعي المتداول، مثل: «استغفر، تفكّر، مسلم، كتابيهْ، خلق، سوّى، قدّر، هدى، أخرج، شاء، حوى، جاء، سلّم، حمّاد، استكبر، متواضع، سلسبيل، جذب، همّ، لمّ، ضمّ، عمّ، عسعس، دمدم، زلزل...الخ». ويلحظ أنّ أغلب المفاهيم التي قدّمها المؤلّف بسيطة وواضحة تعتمد على التشبيه المستمد من الواقع، مثل قوله في تعريف الميزان الصرفي: «فهو –إذن– ميزان دقيق يزن الكلمة بالقسط لا يزيد ولا ينقص، وإن شئت فقل: هو صورة مماثلة للكلمة».[42] وقوله في باب الفعل الجامد والمتصرّف: «فالجامد هو الذي لا يتحرّك...وليس في الكون شيء جامد بل هو متحرّك بحركة ذاته أو حركة غيره».[43]

وممّا يحسب للمؤلّف استخدامه الأسلوب الذي يستفز القارئ لإعمال ذهنه حتى يكون شخصا مشتركا في بناء النصّ، ويخرج من شرنقة المتلقي السلبي الذي يكتفي بالقراءة فقط دون استبصار وتحفيزه وتنشيطه، مثل قوله في باب الحديث عن القلب المكاني: «ولكن كيف نعرف أنّه حصل في الكلمة قلب وتحويلٌ؟».[44] وأحيانا تنبيهه إلى قرب المبحث منه من خلال دعوته إلى استحضار معارفه السابقة، مثل قوله في باب الصحيح والمعتل: «إنني على يقين أنّك تعلم الفرق بين الصحيح والمعتل؛ لأنّك قد عرفت حروف العلّة (و.ا.ي)».[45] وقوله في باب تقسيمات الأفعال: «نعم إنّ الصحيح منها (خلق، قدر، أخرج) والباقي أفعلة معتلّة، وإذا تأملت هذه الأمثلة وغيرها مما أسعفك به ذهنك سوف تجد أنّ الصحيح على أنواعٍ والمعتل كذلك».[46]

كما جنح المؤلّف إلى تسلية خواطرِ القرّاء ببعض الشّواهد الشعريّة الماتعة التي تزيدهم تشوّقا للدّرس، وتبعد عنهم الإملال والضجر، مثل قوله في باب المتعدّي واللازم: «ثمّ إنّي أقدّم لك أبياتا عجيبة، يُقرأ كلّ واحد منها من آخره، كما يُقرأ من أوّله، واشتملت على ثلاثة عشر فعلا، بعضها متعدٍّ وبعضها لازم، أشهرها هذا البيت:

مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ... وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ».[47]

وسعى المؤلف إلى تقديم بعض الفوائد التي تعين دارس فنّ الصرف وعلم اللّغة أيضا، مثل قوله: «(جذب) من الجذب، وهو المصدر، ولو كان (جبذ) هو الأصل لكان المصدر

هو (الجبذ)..والذي أخذ به المحققون من أهل اللّغة أنّ كلًّا من الفعلين مستقلٌّ بذاته، وكذلك عامة الأمثلة المشابهة، هي من باب اختلاف اللّغات لا القلب، وإنما ذكرته لشهرته».[48] وقوله: «جميع الأفعال التي تكون مفتوحة العين في الماضي والمضارع، لا بدّ أن يكون عينها أو لامها من حروف الحلق (همزة، هاء، عين، حاء، غين، خاء)، ولكن ليس كلّ حلقيٍّ مفتوحًا فيهما. وأمّا (أبى، يأبى)؛ فشاذ، و (رَكَنَ يَرْكَنُ) من تداخل اللغات».[49]

ويتخّذ المؤلف أحيانا طريق ختمِ المبحثِ بجملة من الحكم والأمثال التي تزيد المتلقّي تشوّقا وتثري رصيده اللغوي والمعرفي بالمفردات، مثل قوله في باب الصحيح: «من عزّ بزّ، ما غنم من أثم، رضي بالهوان من شكى ضرّه، من تبع هواه هلك، دل على عاقل أخياره».[50]

وجاء في باب الفعل وتوكيده بالنون: «قال عليّ ﷺ: لا يرجونّ أحدكم إلّا ربّه، ولا يخافنّ إلّا ذنبه، ومن حكم الشعر:

لَا تَمْدَحَنَّ اِمْرَأً حَتَّى تُجَرِّبَهُ* وَلَا تَذُمَّنَهُ إِلَّا بِتَجْرِيبِ**».[51]

كما ضمّن كتابه بعض التدريبات الموجّهة إلى طالب هذا الفنّ، مثل قوله: «ودونك أبياتا من لامية ابن الوردي تنظر ما فيها من أفعال صحيحة ومعتلّة:

جَمِّلِ المَنطِقَ بالنَّحْوِ فَمَنْ * * * يُحْرَم الإِعْرَابَ بالنُّطقِ اخْتَبَلْ

انْظُمِ الشِّعرَ وَلَازِمْ مَذْهَبِي * * * فِي اِطِّرَاحِ الرَّفْدِ لَا تَبْغِ النَّحَلْ

فَهُوَ عُنْوَانٌ عَلَى الفَضْلِ وَمَا* * * أَحْسَنَ الشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ

مَاتَ أَهْلُ الفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى* * * مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الأَصْلِ اِتَّكَلْ».[52]

وجاء في باب المجرّد والمزيد: «وقال محمّد بن إدريس الشافعي القرشيّ ت 204 هـ):

دَعْ الأَيّامَ تَفعَلُ مَا تَشاءُ ****وَطِبْ نَفْسًا إِذَا حَكَمَ القَضَاءُ

في البيت خمسة أفعال من باب (فَتَحَ، وَضَرَبَ، وَنَصَرَ)».[53]

ومن سمات الكتاب أيضا التزام المؤلّف أحيانا بشرح بعض الكلمات الغريبة والحوشية، مثل قوله في شرح بيت تأبط شرا (ثابت بن جابر الفهميّ ت 607 م):

تَقُولُ سُلَيْمَى لِجَارَاتِهَا*أَرَى ثَابِتًا يَفَنًا حَوْقَلاً**

يقول في الشرح: «اليفن: الشيخ المسن، وحوقل الشيخ: قارب في خطاه، وضعف».[54]

ويهيب المؤلف بالطالب أن يدقّق في بعض المسائل ويحيطها باهتمامه ورعايته، ويتقرّب منها، ويجدّ في تحصيلها، لما لها من أهميّة كبيرة في فهم كتاب الله، مثل قوله في فصل الثلاثي المزيد: «واعلم أنّ لأوزان هذه الأفعال المزيدة معاني مهمّة تنفعك معرفتها في إدراك الفروق الدقيقة بين الألفاظ، وتطلعك على شيء من أسرار لغة الكتاب المبين».[55]

وقد رصّع كتابه ببعض الشواهد من ألفيّة ابن مالك الجياني، مثل قوله في فصل المتعدّي واللازم:[56]

عَلَامَةُ العَطْفِ المُعَدَّى أَنْ تَصِلْ**هَا غَيْرِ مَصْدَرٍ بِهِ نَحْو عَمِلْ**

وبعض الشواهد من منظومات أخرى، مثل استشهاده ببيت من لاميّة الأفعال لابن مالك أيضا: [57]

وَبَعْدُ فَالْفِعْلُ مَنْ يُحْكِمْ تَصَرُّفَهُ* يَحُزْ مِنَ اللُّغَةِ الأَبْوَابَ وَالسُّبُلاَ**

ومن محاسن الكتاب تضمّنه بعض الفوائد البلاغيّة، مثل ما ورد في حديثه عن التضمين: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور/63)؛ أي يخرجون عن أمره، ولو كان المراد معنى الفعل (يخالفون) لقال: يخالفون أمره. فإن سألت: لماذا لم يقل: يخرجون عن أمره؛ إذا كان الأمر كما ذكر؟ قيل لك: لأن المراد يخرجون عن الأمر بالمخالفة، لا بمجرد الخروج. ومن فوائد ذلك للقارئ: تحريك الذهن وإعماله مع اللفظ، وفيه تدريب على التدبر، والمتمرّس في ذلك يفطن إلى المعنى الذي ضمّن فيه الفعل بأسرع ما يمكن». [58]

وقد انعكست ثقافة المؤلف الدينيّة في إكثاره من الاحتجاج بالشاهد القرآني، مثل ما جاءَ في فصل توكيد الفعل بالنون: ﴿**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم** ﴾ (الأنبياء/57) ﴿**لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ (يوسف/32)، ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**﴾ (الأنفال/58)، ﴿**فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (يونس/89)، وفي فصل المتعدّي واللازم: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ (الإسراء/70) ﴿ **وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ**﴾ (البقرة/235) ﴿**إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ**﴾ (يوسف/43).

ومن الفوائد التي قدّمها شرحه وتحليله لأسباب قلّة بعض الأبنية الصرفيّة؛ مثل قوله في باب أوزان الثلاثي المجرّد «بقي من الأوزان المحتملة في الثلاثي (فُعِل، وفِعُل) الأول نادر، ومما جاء على وزنه (دُئِل)، وسبب ندرته: شبهه بالفعل الذي غيّرت صيغته كضُرِب، وعُنِيَ، وهذا خاص بالفعل، والاسم لا يتشبّه بما هو دونه؛ أي الفعل. والثاني لا وجود له في لغة العرب، وذلك لصعوبة الانتقال من كسر إلى ضمّ». [59] وجاء في باب مصادر الثلاثي والرباعي المزيد: «فإذا قيل: قد جاء على ما هو على وزن (تَفْعِلَةٌ) لما هو صحيح اللّام، فالجواب عند الصرفيين: إنه نادر، كجرّب تجربة، وفرّق تفرقة». [60]

وكذلك التنبيه إلى بعض المسائل الخلافيّة بين مدرستي البصرية والكوفة والترجيح بينها من منطلق الاستدلال والقياس؛ فإن كان البصريون يرون المصدر أصل المشتقات فنحاة الكوفة يرون «أنّ الأصل في المشتقات في الفعل؛ لأنّك تقول: الجلوس من (جلس). والبصريون يقولون: جلس من الجلوس. وآراؤهم –في الغالب– أقرب إلى العدل، وأبعد عن التكلف، وكثير من أصلهم في النّحو تشبه أصل أهل الظاهر في الفقه». [61]

ومن مميّزات الكتاب المحمودة توضيحُ بعض المسائل التي تشكّل التباسا وغموضا للمتعلّم، مثل قوله في الفرق بين المصدر الصناعي والمنسوب المختوم بالتاء: «قد يلتبس المصدر الصناعي بالأسماء المنسوبة المختومة بالتاء، والفرق دقيق، فإذا قلت: هذه نزعة جاهليّة، فهو اسم منسوب؛ لأنه وصف. وأمّا إذا قلت: جاهليّة القرن الخامس عشر؛ فهو مصدر صناعيّ. ولو أراحنا المتأخّرون، وجعلوه كلّه من باب النسب؛ لكان أولى».[62] وفي حديثه عن مصادر الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف يفرّق بين المصدر واسم المصدر بقوله: «المصدر لا بدّ أن يوافق فعله في لفظه حروفه، كتوضّأ توضّأً، وأعطى إعطاءً، فإذا قلت: تكلّم كلاما، وتوضّأ وضوءا، وأعطى عطاء، فهو اسم مصدر».[63]

وقد أحسن المؤلّف حين نهج طريق التنبيه إلى ما شذّ عن القاعدة من الأبنية الصرفيّة، مثل قوله في باب اسم الفاعل: «شذّت ألفاظ أيضا جاءت على وزن فاعل، وفعلها رباعي، منها: أيفع الغلام، فهو (يافع)، وأبقل الموضع، فهو (باقل)».[64] وقوله في باب مصدر الهيئة: «ولم يرد عن العرب صياغته من غير الثلاثي إلّا في ألفاظ قليلة لا يقاس عليها، منها قولهم: اختَمَرتْ خِمرةً».[65] وتعرّضه لبعض الأبنية السماعيّة التي لم تشتهر، مثل: «مِفعيل (مِعطير)، وفُعلة (ضُحكة) ، وفَاعول (فَاروق)، وفعّال (كُبّار)، فعّيل (حفّيظ)».[66]

ومن الفوائد المعتبرة تصحيح بعض الأخطاء الشائعة، مثل قوله في باب النسب: «وأمّا قولهم في النسبة إلى خلوة: خَلوَتي؛ فمن لحن القول».[67] وحديثه عن بعض التحويلات التي يجوز فيها أكثر من وجه، مثل: «وأمّا إذا كان الاسم ثلاثيا، والحرف الثاني ساكنا، فلك فيه ثلاثة أوجه، نحو: هنْدات، يجوز في النسب أن تقول: هِنْدِيّ، وهِنْدَوِيّ، وهِنْدَاوِيّ».[68]

خاتمة:

يمكن القول في ختام هذه الجولة البحثيّة الماتعة أنّ كتاب "القرعبلانة في فنّ الصّرف" يعدّ مرجعا مميّزا لطالب الصّرف المبتدئ، من أجل أن يبني معارفه الأوليّة حولَ الأبنيةِ اللغويّة، ويرصف لبناتها كي تتفتّق قريحة ملكته، ويندى مداها، ويتّسع مدارها، وتنبلج له آفاق الفهم، وتبتسم له دوحة الاستيعاب الغنّاء. ولكنّ الكتاب وحده غير كافٍ؛ إذ يُتطلّب من المتعلّم أن يتدّرج منه إلى غيره من كتب الصّرف الأخرى المتنوّعة، بما فيها الكتب التي تناولت الصرف من منظور علم اللغةِ الحديث؛ لما في جميع هذه الكتب من فوائد جليلة وأبسوطات نافعة، تعين طالب العلم وتزوّده بما يحتاج إليه من علوم ومعارف تخصّ هذا العلم، الذي تمّ تناوله من جوانب متنوّعة، ووفق مناهج عديدة قديمة وحديثة.

الهوامش والإحالات:

1-ينظر: مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 1425هـ-2004م، ص: 513.
2-البقرة/64.
3-التوبة/ 127.
4-يوسف/24.
5-الفرقان/65.
6-عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص: 6.
7-ينظر: أيمن أمين عبد الغني، الصرف الكافي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، (د.ط)، 2010م، ص: 19.
8-ينظر: عبد المقصود مُحَمَّد عبد المقصود، دراسة البنية الصرفية في ضوء اللسانيات الوصفيّة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 1427هـ-2006م، ص: 93-94.
*-ينظر على سبيل المثال التعريف الذي أورده ابن جني في كتاب الخصائص في "باب القول على النحو". ابن جني (أبو الفتح عثمان ت 392 هـ)، الخصائص، تح: مُحَمَّد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، (دط)، (دت)، 34/1.
9-ينظر: مُحَمَّد جعفر إبراهيم الدرازي، تيسير الصرف، إصدارات حوزة العلمين، المنامة، ط2، 1436هـ-2014م، ص: 19.
10-ينظر: عبد الهادي الفضلي، مختصر الصرف، دار القلم، بيروت، (دط)، (دت)، ص: 8.
11-ينظر: عبد القادر فيضي، عبد الله الدارمي، مجلس التعليم الإسلامي، كاليكوت، 2007م، ص: 2.
12-ينظر: أحمد بن مُحَمَّد الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصرف، قدّم له وعلّق عليه: مُحَمَّد بن عبد المعطي، دار الكيان للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، (د.ط)، (د.ت)، ص: 27.
13-ينظر: عبد الرحمن مُحَمَّد شاهين، في تصريف الأفعال، مكتبة الشباب، عمان، ط1، 1998م، ص: 17.
14- عبد القادر فيضي، عبد الله الدارمي، ص: 2.
15- المرجع نفسه، ص: 2.
16-المرجع نفسه، ص: 2.
17-المرجع نفسه، ص: 3.
18-المرجع نفسه، ص: 6.
19-المرجع نفسه، ص: 8.
20-المرجع نفسه، ص: 216.
21-ينظر مثلا: المرجع نفسه، ص: 92-94.
22-المرجع نفسه، ص: 128.
23-ينظر: مُحَمَّد جعفر إبراهيم الدرازي، تيسير الصرف، ص: 9.
24-ينظر: المرجع نفسه، ص: 19-35.
25-ينظر: المرجع نفسه، ص: 38، 41.
26-ينظر: المرجع نفسه، ص: 42-43.
27-ينظر: المرجع نفسه، ص: 50-52.
28-ينظر: المرجع نفسه، ص: 75.
29-ينظر: المرجع نفسه، ص: 86-88.
30-ينظر: المرجع نفسه، ص: 113-115.
31-ينظر: المرجع نفسه، ص: 163-168.
32-عبد الهادي الفضلي، مختصر الصرف، ص: 5.
33-ينظر: المرجع نفسه، ص: 6.
34-ينظر: المرجع نفسه، ص: 6.
35-المرجع نفسه، ص: 6.

36-ينظر: المرجع نفسه، ص: 26، 31، 88.
37-ينظر: ابن خلدون (عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي ت 808هـ)، المقدّمة، تحقيق: أحمد جاد، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، 1437هـ-2016م، ص: 560-561.
*- الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن علي الحربي، أستاذ القراءات والتفسير بجامعة أم القرى ومؤسس مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية ورئيسه، ألّف ما يربو عن خمسة وخمسين كتابا، وله برامج مصوّرة ومسجّلة في قناة المجمع.
38-عبد العزيز الحربي، القرعبلانة في فنّ الصرف، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1433هـ-2012م، ص: 8.
39-المرجع نفسه، ص: 11.
40-المرجع نفسه، ص: 16.
41-المرجع نفسه، ص: 18.
42-المرجع نفسه، ص: 18.
43-المرجع نفسه، ص: 41.
44-المرجع نفسه، ص: 21.
45-المرجع نفسه، ص: 24.
46-المرجع نفسه، ص: 25.
47-المرجع نفسه، ص: 45.
48-المرجع نفسه، ص: 23.
49-المرجع نفسه، ص: 31.
50-المرجع نفسه، ص: 27.
51-المرجع نفسه، ص: 51.
52-المرجع نفسه، ص: 29.
53-المرجع نفسه، ص: 32.
54-المرجع نفسه، ص: 34.
55-المرجع نفسه، ص: 34.
56-المرجع نفسه، ص: 43.
57-المرجع نفسه، ص: 52.
58-المرجع نفسه، ص: 45.
59-المرجع نفسه، ص: 59.
60-المرجع نفسه، ص: 70.
61-المرجع نفسه، ص: 64.
62-المرجع نفسه، ص: 78.
63-المرجع نفسه، ص: 73.
64-المرجع نفسه، ص: 79.
65-المرجع نفسه، ص: 77.
66-المرجع نفسه، ص: 81.
67-المرجع نفسه، ص: 116.
68-المرجع نفسه، ص: 116.